مؤلّفات المركز، 2022، ص. 93-107

المجال والإنسان في البادية : قراءة أنثروبولوجية لأشعار البادية لدى الأمير عبد القادر

مختار رَحاب [1]

مقدّمة

إنّ موضوع إثبات وترسيخ الكينونة والذات الحضارية والثقافية لدى كل الشعوب والحضارات والأمم، والدول والمجتمعات كان في الماضي يحتل حيزا كبيرا ولا يزال إلى وقتنا المعاصر، فيتصدر الخطابات التراثية والنقاشات الفكرية، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك هو تحقيق الوجود ضمن المسار والتدافع الحضاري للأمم وثقافاتها، والعمل على إثبات المشاركة والحضور ضمن المراحل الحضارية المفصلية التي يميزها الإبداع والتميز، والإسهام في التطوير والابتكار لصالح الإنسانية. وضمن هذا المسار الحضاري الذي تميز بالتدافع والصراع تارة، وبالحوار والتعايش تارة أخرى، كانت المنظومات الثقافية، والمرتكزات الفكرية، والخلفيات الأيديولوجية، وكذا الحوادث التاريخية قد ساهمت مجتمعة في رسم صورة لدى كل ثقافة أو شعب أو أمة عما سواها من الثقافات والأمم والشعوب الأخرى.

وقد شكلت البادية مجالا خصبا احتضن التراث بمختلف أنواعه على شكله الشفوي، والذي لا يزال إلى يومنا هذا يمثل المحور الأساسي للثقافة الجزائرية التاريخية، خصوصا تلك الأشعار التي ساهمت بشكل كبير في خدمة المقاومة الجزائرية الشعبية للأمير عبد القادر، هذا ما دفع العديد من الباحثين في شتى المجالات، خصوصا منها الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية، للاهتمام بالتراث الثقافي سواء الشفهي منه أو المكتوب، وكانت مثل هذه الأبحاث لها نتائج على واقع العلاقات بين الشعوب والدول والحضارات على

[1] Université de M’sila, 28000, M’sila, Algérie.

مختلف الأصعدة، وفي وقتنا الحديث والمعاصر مثلا نجد أن المركزية الثقافية الأوربية ساهمت في رسم صورة الجزائري وعلاقته بالاستعمار. وتحددت من خلال هذه النظرة رؤى وسياسات أثرت على واقع العلاقة بين الشعوب والحضارات.

وفي هذا المقال سنعمل على توضيح واستجلاء لأشعار البادية أو الشعر الشعبي من خلال التركيز على تحليل وتفكيك بعض من النماذج الشعرية وعلاقتها بالمقاومة الشعبية، من خلال تتبع مواقف الأمير عبد القادر في إطار أعماله الثقافية والفكرية ذات البعد الإنساني.

وكيف يمكننا من خلال الأعمال الشعرية والإنتاجات التراثية أن ندعم نظرة الجزائر أمة وشعبا للآخر الأجنبي، وبناء نموذج تتحدد من خلاله آليات التعامل وطرائق التعايش والتعامل مع الآخر خصوصا في زمننا المعاصر.

وإن المتأمل في البادية بوصفها مجالا طبيعيا يجدها هي حاملة النبات والأشجار، والحيوانات والهامات والجبال الراسيات، بل فيها كل مصدر للحياة، وقد كانت بلاد سكان المغرب في بداية عهودهم ومنبت أجدادهم، فهي موطن الرجولة ومأوى الأحرار، وفيها يلقن الفرد قيم الرجولة وشرف الأخلاق، وعزة النفس، وكرم الطباع، وهي المجال الطبيعي الذي يدفع بالإنسان إلى ممارسة التأمل والتفكير في الموجودات والمخلوقات، وبها علامات تحديد الأوقات، وفي سمائها علامات الاهتداء إلى الجهات والاتجاهات، وهي الأيكولوجيا الداعمة لقوة الأبدان وصفاء الذهن لدى الإنسان.

الأمير عبد القادر والاستلهام الشعري من البادية

إن الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية حول البادية كمجال، والبداوة كنمط حياة أو منظومة ثقافية رغم تقدمها الملموس منذ الستينيات من القرن الماضي في البلاد العربية، إلا أنها لا ترقى في مجموعها إلى مستوى حجم مشكلة المجتمع البدوي الذي تتقاسمه البلاد العربية شرقا وغربا، والأسباب مختلفة لعل أهمها: النقص الواضح في مصادر المعلومات والبيانات الإحصائية التي تناولت الحياة البدوية العربية، بل إن الإحصائيات الحيوية التي تعتبر ضرورة علمية لأية دراسة أولية، لا تتوفر بصورة منقحة علميا، كما أن الدراسات الأنثروبولوجية التي سبق وأن قام بها بعض الباحثين الأوربيين عن البدو في الوطن العربي كانت تستهدف بالدرجة الأولى إخضاع الجماعات البدوية لنظام السلطة الاستعمارية. وعلى هذا الأساس تتطلب دراسة المجال في البادية بالمجتمعات

العربية تأسيس نظرية متكاملة في دراسة المجتمع البدوي، تستمد مفاهيمها الأساسية من الدراسات الحقلية للأنثروبولوجيا الاجتماعية (السويدي، 1986).

بدأت بذور الشعر الحديث في الجزائر مع الأمير عبد القادر الذي يعد بحق من "رواد الحركة الأدبية الحديثة في المغرب عموما، وفي الجزائر خصوصا" (بن قينة، 1995، ص. 15)، فهو زعيم مدرسة الإحياء في الجزائر كما يرى بعض الدارسين الجزائريين، وكما كان محمود سامي البارودي رائدا لها في مصر والمشرق العربي.

ثم جاءت فترة الركود الأدبي التي أصابت الشعر خصوصا، لأنّ الشعراء هم أكثر الناس إحساسا بالواقع، فالخمول الفكري والثقافي أعقبه ركود شعري في جل الميادين، "وامتدّ ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر حين بدأ يسري في المجتمع انتعاش واعد باستئناف النهوض بعد الانكسار بفعل عوامل مختلفة داخلية وخارجية" (بن قينة، 1995، ص. 41).

فقد شغلت الطبيعة –منذ بدأ الشعر– جميع الشعراء، أو قل كيف يكون الشعر من دون الطبيعة ؟ ألم تستهوي الطبيعة الشاعر الكبير ذو الرمة ؟ ألم يوظفها أبو القاسم الشابي توظيفا ثوريا جماليا ليوقظ بها المشاعر والنفوس ؟ ألم يودعها العمودي الحسن ويمزجها بكاسات شعره ؟ وكذلك كان شأن إخوانه الشعراء في الجزائر، فصوروا بها لوحات بقيت حية نابضة محتفظة بألوانها وفيض ينابيعها (عوين، 2001).

ولعل طبيعة أرض الجزائر لا تقل سحرا وجمالا عن غيرها حتى لا تغري الشعراء، فيتغنون بها ويخلدون مظاهرها بقصائد تبقى كالقلائد على الصدور.

جماليات المجال الطبيعي في البادية من خلال شعر الأمير عبد القادر

يـا عـاذِرًا لأمـرئٍ قـد هـامَ في الحَضـر وعـــاذلاً لمـــحبَ البـــدوِ والقفـــر
(صيام، د.ت، ص. 172)

لا تـــذمُمنَ بيوتـــاً خـــفَ مَحملَـــها وتمـــدحنَ بيـــوتَ الطـــينِ والحجـــر

لوكنـــتَ تعلـــمُ مـــا فـي البـــدو تعـــذرُني لكـن جهلـتَ وكـم في الجهـلِ مـن ضَـرر

من خلال الأبيات السابقة نجد الأمير عبد القادر يفخر بحياة البادية مقارنة بحياة الحواضر في ذلك الزمن، ويحكم الأمير عبد القادر آلية المنطق، وأداة المشاهدة في الاستدلال وتدعيم رؤيته حول البادية، فيخاطب من رأى في البادية غير رؤيته، أن الحكم لم يكن مستندا لا على مشاهدة أو معايشة أو مشاركة، بل حتى استطلاع لحياة

البادية وما تحويه من مفاخر ومناظر وقيم إيجابية، ويتحسر الأمير عبد القادر عن من جهل حياة البادية، ويبرز أن لمن جهل أمرا عاداه كما يقال في الحكمة، وأن الجهل بالشيء يحمل أضرارا كثيرة. ومن الأشعار التي تغنى بها الأمير إعجابا بالبادية نذكر (صيام، د.ت) :

أو كنـتَ أصـبحتَ في الصـحراءِ مرتقيًـا   بســاطَ رمــلٍ بــه الحصبــاءُ كالــدرر

أو جلــتَ فــي روضــةٍ قــد راقَ منظرُهــا   بكــلِ لــونٍ جميــلٍ شيــقٍ عطــر

تستنشــقنَ نســيمًا طــاب منتشقــاً   يزيــدُ فــي الــروحِ لــم يمــرر علــى قــذر

أو كنــتَ فــي صــبحِ ليــلٍ هــاجَ هانئُــه   علــوتَ فــي مــرقبٍ أو جــلتَ بــالنظر

رأيــتَ فــي كــل وجــهٍ مــن بسائطِــها   سربــاً مــن الــوحشِ يرعى أطيــبَ الشــجر

من خلال الأبيات المدونة أعلاه من شعر الأمير عبد القادر نجده معجبا بالبيئة الصحراوية، وأبرز إعجابه من خلال لغة وتصوير شعري قوي، فصور انبساط الإنسان بالصحراء وارتياحه في جلوسه على بساط الرمل الناعم الذي تتخلله وتزركشه حبات الحصباء وهي من الحجر الصغير مشبها إياها بالدرر والجواهر، ويعتز الأمير عبد القادر ملفتا الأذهان إلى طيب وصفاء ونقاء هواء البادية بعيدا عن كل قذارة أو تلويث كما يحدث في الحواضر، فالبادية هي البيئة الصحية بالمعايير العلمية، ومع صفاء ونقاء هواء البادية يتغنى الأمير عبد القادر بليلها وما يليه من فترات حتى انبلاج الصبح، عندها ينبهر الناظر إلى جمال طبيعة البادية، كيف لا يركز الأمير على النظر والتأمل وهو الصوفي الروحاني.

شجرة البيعة، الخيمة والزمالة، والخيل لدى الأمير بين البعد الحاجي، والأبعاد الرمزية

احتلت الرموز حيزا كبيرا من اهتمام الفلاسفة والعلماء والمفكرين، والمشتغلين بالأنثروبولوجيا والفولكلور لإدراكهم لدورها الحيوي، ليس فقط في حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية، بل أيضا في اهتماماته الشخصية، وإبداعاته الفكرية والفنية والأدبية، فالرموز أبدعها المجتمع والأفراد، وهي في الوقت نفسه عنصر مهم في تشكيل وإعادة تشكيل هويتهم الثقافية.

الرمز : كيفية التوليد والغرض من التوظيف

من معاني الرمز في الاصطلاح كما يذكر "غنيمي هلال" : "الإيحاء، أي هو التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالاتها الوضعية، والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح" (غنيمي، 1983، ص .398).

ويعود أصل كلمة "الرمز" ومعناه إلى عصور قديمة جدا، فهي عند اليونان تدل على قطعة من فخار، أو خزف تقدم إلى الزائر الغريب، علامة حسن الضيافة، وكلمة الرمز "symbole" مشتقة من فعل يوناني يحمل معنى الرمي المشترك "jeter ensemble" أي اشتراك شيئين في مجرى واحد، وتوحيدهما" (الأيوبي، 1982).

كذلك من بين تعريفات الرمز نجد" شارلز بيرس Peirce" (1839 –1914) و"فردناند دوسوسير"Fernand de Saussure" (1857–1915) يقدم "بيرس" تعريفا للرمز فيدرجه ضمن تعريفه العام للإشارة : التي تشمل الصورة أو الأيقونة والدليل index ثم الرمز symbole، فالرمز كما يذكر "بيرس" يشير إلى الموضوع أو الشيء المشار إليه، على أساس من قانون أو قاعدة، أو عادة أو اتفاق، أو ارتباط في التصورات والأفكار، على أنه يعني ذلك الشيء، فالعلاقة بين الرمز والمعنى الذي يشير إليه ليست علاقة طبيعية، بل علاقة تستند إلى اتفاق بين الذين يستخدمون الرمز على أنه يشير إلى معنى محدد، ويتسع مفهوم الرمز ليشمل الكلمات والعبارات، والجمل والكتب، وسائر الإشارات المعروفة أو المتفق عليها من قبل المستخدمين لها، ولقد أكد "بيرس" الدور الذي يلعبه الشخص الذي يقوم بعملية تفسير أو تأويل الرمز، فالمؤول أو المفسر يعد العنصر الثالث والمهم في العلاقة بين الشيء أو الرمز والمعنى الذي ينسبه إليه ذلك المؤول أو المفسر[1] وهذا الأمر الذي يشير إليه "بيرس" في عملية تحليل وتأويل الرمز، لا يتحقق إلا من خلال المقابلة التي يجريها الباحث مع فئات المجتمع، ومع الإخباريين وحفظة التراث الشعبي بوجه خاص.

أما الرمزية فقد ظهرت كمذهب أدبي له مصطلحاته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن أصولها الفلسفية موغلة في القدم، يرى "محمد مندور" : "أنها تستند

[1] السيد الأسود، **الأنثروبولوجيا والفلكلور ومناهج التحليل الرمزي**. من موقع الإنترنت :
http://www.academia.edu

فيما تستند إلى مثالية أفلاطون، وهي التي تنكر حقائق الأشياء الخارجية المحسوسة وتراها في الحقيقة رمزا للحقائق المثالية البعيدة عن عالمنا المحسوس" (العربي، د.ت).

وكانت الرمزية في نشأتها مناوئة للواقعية الطبيعية، وكانت تتسم بطابع الغموض، فمنهم من وقع في شباك الألغاز المعقدة والغريبة، مما جعل المتلقي يعزف وينفر من إنتاجهم عموما، وقد حدد بعض المختصين في هذا المجال أهم الخصائص التي تجعل من الرمزية مذهبا مقبولاً، من بين هؤلاء يذكر "عبد الحميد يونس" : أن الرمزية المقبولة هي التي ترتكز على الفهم الإنساني وتدفع القارئ إلى استخدام قواه الإدراكية، وتوظيف حواسه للوصول إلى الدلالات والمعاني التي تعجز عن تبليغها اللغة المتداولة، والمتعارف عليها (عبد الحميد يونس، 1964).

وكان رواد المذهب الرمزي قد وظفوا رموزا مختلفة ومتباينة منها رموز ذات أصول تاريخية، ورموز أخرى لها أصول دينية وفلسفية، وأخرى تعود إلى أصول بيئية وتراثية. وإذا ما تساءلنا عن الغرض من توظيف هذه الرموز، نجد أن الرمز وظف لمعالجة المشاكل الإنسانية والأخلاقية العامة، بواسطة الخيال وتصوراته، وهذه التصورات تكون غالبا بعيدة عن مشاكل واقع الحياة، وغالبا ما يرتبط الرمز –كما أشرنا– ببعض المظاهر الطبيعية أو الحيوانية، وكل ذلك قصد إنجاح عملية التوجيه للسلوك البشري، من خلال إدراك الفرد للحقائق النفسية والأخلاقية، يذهب "عبد الحميد يونس" في هذا الصدد إلى القول بأن : "الرموز هي معيار التفاهم، ووسيلة لتقييد الحقائق وتيسير إظهارها، فلا يستغني عنها مجتمع، وكثيرا ما تصنعه الشعوب من قوانين عامة، وقواعد السلوك، وأصول للفن. إنما هو محاولات لوضع نظام يمكن أن يثبت الدعائم لأسلوب رمزي يحمد استخدامه" (عبد الحميد، يونس، 1964، ص. 191)، كما يمكننا كذلك من خلال الرمز معرفة القيم الروحية والحضارية للمجتمع، كما يمكن أن يكون الرمز مرآة عاكسة لأوضاع المجتمع الاجتماعية، وحالته النفسية والوجدانية.

الشجرة بين رمزية الاقتداء النبوي، والميلاد السياسي للدولة

لقد احتلت شجرة الدردارة كشجرة من أشجار البادية، مكانة رمزية كما كانت لها وظيفة مادية، فكانت رمزيتها ذات البعد الديني والروحي تبرز مدى تمسك الأمير عبد القادر بالاقتداء بالبيعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والتي كانت قد تمت تحت الشجرة كما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : "لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت

الشجرة"، والشجرة بمختلف أنواعها تندرج ضمن الشعائر العالمية، كشجرة التين، أو شجرة الزيتون، والتي ارتبطت رمزيتها بالنور والسلام والإخاء، وتعود رمزية ودلالة السلام من خلال شجرة الزيتون إلى عهد النبي نوح عليه السلام كما ذكر في العديد من الكتب المقدسة وكتب التاريخ، وفي القرآن الكريم ذكرت الشجرة ستين مرة. وأراد الأمير من خلال القيام بالمبايعة تحت الشجرة بث العزيمة في النفوس، وإحداث شعور لدى أتباعه بإحداث قطيعة مع المرحلة والواقع السائد الذي كان يشهد انقسام القبائل الجزائرية وعدم قدرتها على إيجاد قيادة وراية موحدة، وظلم المحتلين وجبروتهم وجرائمهم ضد الجزائريين، فقد كان الأمير عبد القادر مؤمنا وعاشقا للحرية والتحرر من السيطرة الظالمة، وتحقيق العدل ليس للجزائريين فحسب بل لكل الإنسانية، وكان ينشد الوصول إلى مرحلة من الإخاء الإنساني.

وفي مجال الحديث عن البعد الإنساني والإخاء الديني لدى الأمير عبد القادر، فنجده من خلال بعض آثاره المدونة، وتحديدا كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" يورد ما مضمونه :

> "وأساس الديانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمد، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الله وتعظيمه، واعتقاد أنه علة كل شيء، ولا علة لوجوده هو–سبحانه وتعالى–وإلى حفظ النفس والعقل والنسل والمال، فهذه الكليات الخمس لا خلاف فيها بين الأنبياء، وجميع الشرائع متفقة عليها وحاصلها إلى تعظيم الله، والشفقة على مخلوقاته." (الأمير عبد القادر، د.ت. ص. 97)

إن الحضور الملاحظ للشجرة أو استحضارها من قبل الإنسان في أحداث حياته أو ما يمارسه من طقوس، فيه دلالة على وجود علاقة ووحدة ترابط بين الإنسان والطبيعة، كما أن تشخيص الشجرة للإنسان وتجسيد كل ما هو طبيعي يرمز إلى أن مقياس كل شيء لدى أفراد المجتمع الزراعي ينبغي أن يكون إنسانيا (Francois, 1981).

حيث أن الإنسان كان يرى في الشجرة مصدرا لحياته وتلبية لحاجياته الضرورية، فهي التي يأكل من ثمارها، ويبني بيته من جذع أغصانها، ويتدفأ بحطبها، ويصنع من خشبها كل أدواته البيتية، فكانت بالنسبة له هي الحياة.

وكانت البيعة التي تمت تحت الشجرة كما يلي :

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وصلي على سيدنا محمد الذي لا نبي بعهده، الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال، وتجتمع كلمة المسلمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وأصحابه أجمعين، وبعد : فقال صلى الله عليه وسلم إن الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن، هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل، ونضب فيه الجهل فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل، وانتشر وخفي فيه الحق، ولم يظهر له أثر، حتى أن أعداء الله الكافرين، ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام، وتشتت الكلمة واختل النظام، ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا، ولا من يكون للجهاد دليلا، فلجئوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله ...فاعتذر إليهم بكبر سنه ... ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته ...فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه للإمارة، بل بايعوه رغما عنه... ." (عميراوي، 2003، ص. 38)

وحول الحركة اللغوية في نصي مبايعتي الأمير عبد القادر فقد امتازت بالفصاحة وقوة البيان، فيرى المتقدمون من اللغويين العرب

"أن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور، وقبلته النفوس لأساليب حسنة وإشارات لطيفة تكسبه بيانا وتصوره في القلوب تصويرا" (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، 2001، ص. 67)، ويبدو أن نصي المبايعتين يكشفان المستوى اللغوي الذي كان عليه الكتاب والأئمة والخطباء آنذاك، ويبين عن علاقتهم وارتباطهم بالموروث اللغوي والأدبي، وذلك من خلال دقة التعبير، واختيار اللفظ، وتوظيف البديع، وحسن السبك، وجودة التأليف. (لوحيشي، 2003، ص. 123)

الخيمة بين الرمزية و إنجاح الخطط الحربية للأمير

من بين الأشعار التي نظمها الأمير عبد القادر في هذا الشأن نذكر (صيام، د.ت) :

ترابُهـــا المســـكُ بـــل أنقـــى وجـــادَ بهـــا صـــومُ الغمـــائمِ بالآصـــالِ والبُكَـــر
نُلقـــى الخيـــامَ وقـــد صَـــفت بهـــا فَغَـــدت مثـــلَ الســـماءِ زهَـــت بـــالأنجُمِ الزُهَـــر

قـــال الأولَـى قـــد مضَـى قـــولاً يُصـــدقُه نَقـــلٌ وعقـــلٌ ومـــا للحـــقِ مـــن غيـــر
الحُســـنُ يظهـــرُ فـــي بيتـــين رونقُـــهُ بيـــتٌ مـــن الشِـــعرِ أو بيـــتٌ مـــن الشَـــعر
أنعامُنـــا إن أتـــت عنـــد العشـــي تخـــلُ أصـــواتُها كـــدوي الـــرَعدِ بالسَـــحَر

يواصل الأمير عبد القادر إعجابه بالبادية فيشبه ترابها بالمسك، وهذا دلالة ورمزية على حب المجال والتمسك به، كما يعجب بالخيام وسكنى الخيم، فيرى أن ضرب الخيام في المجال الطبيعي يزيده رونقا وبهاء حتى يغدو كالسماء تزينها النجوم الأزهر، كما يمزج الأمير عبد القادر وببراعة لغوية مظهر وتجلي الحسن من خلال قرض الشعر، وصناعة خيمة الشعر، وكلاهما صنعة لا يتقنها إلا من حاز شعورا رقيقا وخيالا واسعا في الأولى، ومعرفة وحرفة وإتقان في الثانية.

تحمل الخيمة رموزا ودلالات متعددة إنها ترمز للصناعة القائمة على الموارد الذاتية لمجتمع البادية، فهي تصنع من الصوف والشعر التي تجز من الغنم والماعز على التوالي، أو من وبر الإبل، تسهر على إعداد وتصنيع مادتها الأولية أنامل النساء، إنها رمز الاكتفاء الاقتصادي القائم على التنمية المستدامة للمورد الأصلي المحلي، هذا من ناحية البعد الاقتصادي، ومن زاوية ثقافية فالخيمة رمز الشرف والحياء، ومن ناحية الحرب إنها المأوى والمستشفى المتنقل، بل إنها شكلت النواة الأولى لعاصمة أو زمالة الأمير عبد القادر. ويصفها "ميرلو بونتي" Merleau-Ponty Maurice بقوله :

> "ينتصب الجسد كشيء مدرك وككيان مدرك للأشياء... يشكل نسقا ضمن أنساق أخرى تلوذ جميعها بالكون بحثا عن معنى وعن دلالة. فإذا كانت كل الأشياء لا تدرك إلا من خلال ارتباطها بهذا الكون اللامتناهي الامتداد، فإن كينونة الجسد تكمن أيضا في ارتباطه بكون ما جسدنا لا يوجد في الفضاء إنه الفضاء." (Merleau-Ponty, 1945, p. 173)

وكان الأمير عبد القادر حسب أديب حرب : " جمع مؤيديه من مدنيين ونساء وشيوخ في عاصمة متنقلة سماها الزمالة." (حرب، 1983، ص. 595)، وكان عمادها ونواتها الأساسية هي الخيمة، حيث شكل مجموعها عاصمة الدولة الجزائرية الأميرية، حيث التي فصلت عن الحواضر، والزمالة التي كان يقصدها الأمير وفق البعد اللغوي من الزمل، والتي تعني خفة الحمل وسرعة الانتقال والتنقل.

وكانت الزمالة لدى الفرنسيين غير معروفة ومعناها مجهولا، فمن الأدلة التاريخية التقريبية الدالة على ذلك، أنه لما أخبر الملك لويس فيليب بسقوط زمالة الأمير، كان قد سأل من جاءه بالخبر ! Qu est ce que la Smala (Lucas-Dubreton, 1987).

وتبقى الزمالة من حيث الواقع في كتابات المؤرخين وبخاصة منهم الجزائريين قليلة الحظ، من ذلك أن أبا القاسم سعد الله لم يذكرها وهو يتحدث عن الفترة في كتابه الحركة الوطنية، وحتى الأمير عبد القادر نفسه لم يذكر في ديوان شعره اسم الزمالة، وإن كان الدكتور يحي بوعزيز من السباقين للكتابة عن الأمير عبد القادر، فقد خصها بستة أسطر في كتابه الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، والأمر ذاته بالنسبة للذين عاصروا الحدث وكتبوا عنها، إذ نجد عددا من السطور في كتاب طلوع سعد السعود لابن عودة المزاري. والملاحظ عن السياسة الأميرية العمرانية أنها انطلقت من الريف- القرية وتوسعت لتشمل مدنا كثيرة ساحلية وداخلية شكلت منها حزاما دفاعيا ورباطات هجومية، ثم تراجعت هذه السياسة بسقوط هذه المدن إلى الريف والقفار، ومنها إلى المدينة المتنقلة "ازمالة" (عميراوي، 2000).

وكان اختيار المجال من قبل الأمير عبد القادر قد فرض على جيش الاحتلال التحرك جبرا وفق التضاريس التي يحفل بها هذا المجال، خصوصا صعوبة المرتفعات والهضاب، وكذا ولوج المنخفضات وكل هذا يزيد جيوشه إنهاكا وتعبا، إنها خطط التموقع وذكاء اختيار الأماكن الاستراتيجية، وهذا ما اعترف به الماريشال بيجو متحدثا في مجلس النواب الفرنسي : " هل تعلمون أين تكمن قوته ؟ إنها تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع وفي حرارة شمس إفريقيا، وفي توفر المياه، إنها تكمن في حياة الرحال... هذا هو سر قوته" (العماد مصطفى طلاس، 1983، ص. 82).

إن التواصل والاتصال بين الريف والمدينة لم ينقطع على عهد الأمير عبد القادر، وكان الأمير عبد القادر قد تمكن من بناء دولة وطنية ودينية، متشبعة بروح الدين الإسلامي، قائمة على الأخلاق والتسامح والعدالة، ووطنية هدفها محاربة العدو والتفاعل مع العالم الخارجي، أكثر من استخدامها في القضاء على المعارضة الداخلية وحماية المصالح والمواقع، فمهام الدولة ليس فقط الدفاع عن الدين وحده، بل كانت دفاعا أيضا عن الوطن من خلال تجميع كل الطاقات، سواء في مجال الريف أو المدينة، واستغلال كل المصادر والموارد البشرية أو الاقتصادية لخدمة الدولة وتقويتها (زروخي، 1999).

وفي مجال الاعتزاز بالبادية وقيم ساكنيها نسجل أشعار الأمير كما يلي (صيام، د. ت) :

ما في البداوةِ من عيبٍ تذمُ به إلا المروءةُ والإحسانُ بالبدر

وصحةُ الجسمِ فيها غير خافيةٍ العيبُ والداءُ مقصورُ على الحضَر

من لم يمت عندنا بالطعنِ عاشَ مدى فنحنُ أطولُ خلقَ اللهِ في العُمر

ثم يتطرق الأمير عبد القادر إلى قيم البادية، فيرى أن البادية ليس لها عيب تذم به، فهي مجال قيم المروءة والإحسان، وأهلها معافون الأبدان، بعيدين عن الأمراض والأسقام، ثم نكتشف نفثات ديموغرافية لدى الأمير، فيرى أن من لم يمت من أهل البادية بالطعن في الحرب أو المواجهة، طال عمره، فأهل البادية حسبه أطول خلق الله في العمر. إنها البادية التي كانت مكونا أساسيا في دولة الأمير عبد القادر في العديد من الأوقات والمراحل لا سيما منها التي شهدت حوادث حرجة، حيث شكلت قاعدة أساسية لاحتضان الجيوش، كما شكلت موقعا لإنشاء وتشكيل العاصمة المتنقلة، حيث يقول مؤسس الجغرافية السياسية راتزل : "أن الإلمام بالدولة لا ينفصل عن الإلمام بالأرض" (جان باتيست وربنوفان، 1982، ص. 15)

وفي إطار تنظيم المكان فنجد أن الأمير عبد القادر قد قام بتنظيم مكاني مزدوج بين الريف والمدينة، وهذا نظرا للظروف والاستراتيجية الحربية ضد الجيوش الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى تحقيق كينونة محسوسة وماثلة في النفوس وفي المخيال الجمعي للجزائريين في ذلك الوقت، من خلال إشعارهم بوجود سلطة أميرية حافظة ومتحكمة في المجال الجغرافي في تلك الفترة، كما يمكننا كذلك أن نستنبط حب الجزائري لأرضه وارتباطه بها ودفاعه عنها، فالأرض كما في الثقافة الجزائرية هي "العرض" وهي "الشرف"، وهذا ما مكن لقيم البادية أن تظل فاعلة في نفسية الفرد الجزائري محققة له الارتباط بأرضه، كما ساهمت في صناعة جسر واصل ومستمر بين المدينة والريف أو البادية في تلك الفترة الزمنية.

الخيل حيوان البادية : الرمزوالوظيفة الحربية

لأهل البادية قصة ولع شديد بتربية الخيل واقتنائها، لا سيما الخيل الأصيلة أو الأصائل أو الأصايل منها، وأول دوافعهم في ذلك هو ما يعتقدونه حول الخيل، حيث يعتقدون أن لها

صلة وثيقة بالطالع والسعد، وأن ظهورها مجلبة للعز والفخر، وهذا نابع من أقواله عليه الصلاة والسلام : "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"، وقوله عليه الصلاة والسلام في الخيل : "أعرافها أدفاؤها وأذنابها مذابها" والخيل الأصيلة أو الأصائل هي التي يثبت أصلها، ويحافظ مربوها على أنسابها، فينسبونها أرومة أرومة وبطنا بطنا حتى الوصول إلى رسنها الأصيل الذي تحدرت منه. ومن أقوال الأمير عبد القادر في ذلك نجد (صيام، د. ت).

نُبَـــاكِرُ الصَـــيدَ أحيانًـــا فنبغَتُـــهُ فالصـيدُ منـا مـدى الأوقـاتِ فـي ذُعـر
ونحـــنُ فـــوقَ جيـــادِ الخيـــلِ نركُضُـــها شـــليلُها زينـــةُ الأكفـــالِ و الخَصـــر
نُطـــاردُ الـــوحشَ و الغـــزلانَ نلحقُهـــا علـى البِعـادِ و مـا تَنجُـو مـن الضَـمر
نَـــروحُ للحـــي لـــيلاً بعـــدَ مـــا نَزلُـــوا منـــازِلاً مـــا بِهـــا لطـــخٌ مـــن الوَضَـــر
فَخيلُنـــا دائمًـــا للحـــربِ مســـرجةٌ مـــن اســـتَغاثَ بنـــا بِشِـــرهُ بـــالظَفَر
شَـــرابُها مـــن حليـــبٍ لا يُخالِطُـــهُ مـــاءٌ و لـــيسَ حليـــبُ النـــوقِ كـــالبَقَر

وعرب البوادي يتغنون بجمال الخيل وسرعة ركضها، ومما يدلل على احترامهم لها، أنهم يحترمون الخيال الذي يضيفهم أكثر من الهجان، وعلى صاحب البيت أن يهتم براكبي الخيل من ضيوفه قبل أن يهتم براكبي الإبل، ويتفاءل العرب بالخيل ويتشاءمون منها، فالحصان محجل الثلاثة مطلوق اليمين هو المقبول في نظرهم، وكذلك الفرس الحمراء، وأما إذا كان الحصان محجل الثلاثة مطلوق اليسار، فإنهم يتشاءمون منه ويعتقدون أنه لا بد وأن يقتل خياله، وبينهم رجال يميزون الإشارات الطيبة من الرديئة، وللخيل صفات معلومة ينقص قدرها كلما نقصت واحدة منها (العارف، 2004).

أما الإبل فهي سفن البادية، ومناقذ الإنسان في بحرها الخضم، هي الركن الركين الذي ترتكز عليه حياة البدواة، وهي الظاهرة اللامعة المخيفة معا لتلك الحياة، أينما كانت كان الهناء معها، وكان البلاء، وحيثما سارت سار العز معها، وسار الفناء في وقت واحد، وكما أنها مصدر المنعة والقوة والعز والسطوة في نظر البدوي، فإنها في نفس الوقت منبع الغزو والشر والنقمة والألم، ولئن قلنا فيها ما شئنا وشاء لنا الهوى، فإنه لا بد لنا من أن نقر البدوي في معتقده أن لا حياة له إلا بها، إذ إنها بلحمها ولبنها ووبرها، ونسلها وصبرها وقوتها

وبعرها، دعامة الحياة الاقتصادية في البادية كلها من أقصاها إلى أقصاها، فعليها يسيرون ومن لبنها يأكلون، ومن وبرها يكتسون، وببعرها يتدفؤون، وبها وبظهورها يحتمون يوم تقع بينهم واقعة، أو ينزل في ديارهم بلاء (العارف، 2004).

ومن أشعار الأمير عبد القادر حول الإبل ووظائفها يقول : (صيام، د. ت) :

يـــومَ الرحيـــلِ إذا شـــدت هوادجُنـــا شـــقائقٌ عَمَّهـــا مـــزنُ مـــن المطـــر
فيهـــا العَـــذَارى و فيهـــا قـــد جَعَلـــنَ كـــوى مرقعـــاتٍ بأحـــداقٍ مـــن الحـــور
تمشـــي الحـــداةُ لهـــا مـــن خَلفِهَـــا زجـــلٌ أشَـــهى مـــن النـــارِ و الســـنطيرِ و الـــوترِ
سَـــفائنُ البَـــرِ بـــلِ أنجَـــى لراكِبِهـــا ســـفائنُ البحـــرِ كَـــم فيهـــا مـــن الخَطَـــر
لنـــا المَهـــارَى و مـــا للـــرِيمِ ســـرعتُها بهـــا و بالخيـــلِ ذلَلنـــا كـــل مُفتَخَـــر

خاتمة

إن البادية كمجال وإنسان من خلال أشعار الأمير عبد القادر تمتاز بحياة بسيطة غير معقدة، ملؤها الصفاء دائما ؛ مظاهر حياتها تطبعها رمزية خاصة ومختلفة عن حياة الحاضرة، اقتصاد أهلها يقوم على المحلية والاكتفاء مما تدر أغنامهم وأبلهم، ومما تنبت أرضهم من نباتات ومحاصيل ؛ وفي البادية تواصل وتناغم بين الأجيال، يتواصل الشباب مع الكبار للأخذ من خبراتهم وتجاربهم، إن فضاء البادية يعمره إنسان مفعم بحياة القيم، حيث يتعلم أخلاق الرجال، وفصاحة الكلام، وحفظ الجوار، وحماية المظلوم، وغيرها من الفضائل. ويرى بعض الباحثين أننا في ظل ما نواجهه في عالمنا الحديث من شرور وظلم وتعذيب وانتهاك لحقوق الإنسان وكرامته، فما أحوجنا اليوم إلي تلك الحاجات في فكر الأمير كمتصوف وكإنسان عاش حياته باحثا عن أسمى وأعلى مكانة يصل إليها الإنسان، ونجد ذلك جليا في كتاباته وأشعاره ونظرته للكون والوجود وموقع الإنسان من ذلك، وهي نظرة تختلف كلية عن نظرة الحضارة الغربية المعاصرة. لقد قال الأمير عبد القادر كلمة الفصل عندما حدث نقاش بين الطلبة حول تفضيل الحاضرة أو البادية، فانتصر الأمير للبادية في قصيدة له مشهورة كانت محل دراسة وتحليل في مقالنا هذا.

بيبليوغرافيا

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (2001). **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**. (ط. 1). (ج. 2). (تحق هنداوي عبد الحميد تحق.). صيدا، بيروت : المكتبة العصرية.

إسماعيل، زروخي (1999، جوان). الدولة الوطنية وأصالتها عند الأمير عبد القادر. **مجلة سيرتا**، السنة الثامنة، (12)، 141. الجزائر : جامعة قسنطينة.

الأمير عبد القادر (د.ت). **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**. (حقي ممدوح، تحق.). مصر : مكتبة الخانجي، ص. 97.

الأيوبي، ياسين (1982). **مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات، الرمزية**. (ط. 1). (ج. 2)، بيروت، لبنان : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص. 8.

بن قينة، عمر (1995). **في الأدب الجزائري الحديث. تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما.** الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

جان، باتيست وروبيير رينوفان (1982). **مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية**. (ط. 2). لبنان : دار بحر المتوسط ودار عويدات.

حرب، أديب (1983). **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر**. (ج. 2). الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

السويدي، محمد (1986م). **بدو الطوارق بين الثبات والتغير، دراسة سوسيو أنثروبولوجية في التغير الاجتماعي**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، صص. 28-29.

صيام، زكريا (د. ت). **ديوان الأمير عبد القادر**. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، صص. (78، 172،173، 176، 177، 178،179-180).

العارف، عارف (2004م). **القضاء بين البدو**. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص. 146.

عبد الحميد، يونس (1964). **الأصول الفنية للأدب**. (ط. 2). مصر : مكتبة الأنجلو مصرية، ص. 185.

العربي، حسن درويش (د. ت). **النقد الأدبي الحديث**. (ط. 2). القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ص .267.

العماد، مصطفى طلاس (1983). **فارس الجزائر، الأمير عبد القادر**. (ط. 2). دار طلاس.

عميراوي، احميدة (2000). **من الملتقيات التاريخية الجزائرية**. قسنطينة-الجزائر : دار البعث للطباعة والنشر، صص. 66 - 68.

عميراوي، أحميدة (2003). **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي**. عين مليلة-الجزائر : دار الهدى للطباعة والنشر، ص. 38.

عوين، أحمد (2001). **الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث**. (ط. 1). مصر : دار الوفاء لدينا الطباعة، والنشر، والإسكندرية. ص. 5.

غنيمي، هلال (1983). **الأدب المقارن**. (ط. 3). بيروت- لبنان : دار العودة.

لوحيشي، ناصر (2003). **الحركة اللغوية في نصي مبايعتي الأمير عبد القادر الأولى والثانية**، في سلسلة كراسات البحث، فرقة البحث "**آثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري**، 1830- 1962". عين مليلة- الجزائر : طباعة دار الهدى.

François, M. (1981). *La société moderne industrialisée ou le monde à l'envers et son insidieuse auto destruction*. (2e éd.), Rabat : Ed. Moncho, pp. 79. 99.

Lucas-Dubreton, J. (1987, juin). "Le père Bugeaud" *à la conquête de l'Algérie in Historia*. (486), Paris, p. 24.

Merleau-Ponty, M. (1945). *Phénoménologie de la perception*. Gallimard. Consulté Sur Site Web : http://www.academia.edu